٩٩/٤/٢٨
مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٢١٠
التاريخ ١٥/٢/٢٠١٤

مجلة الإنماء العربي للعلوم الانسانية

الفكر العربي

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

العدد الثاني والثلاثون نيسان (ابريل) - حزيران (يونيو) ١٩٨٣ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر — د. إحسان عباس — د. شكري فيصل

الشيخ عبد الله العلايلي — د. عمر التومي الشيباني — د. عبد السلام المسدي

د. مصطفى التير — د. معن زيادة — د. إبراهيم رفيدة

رئيس التحرير
رضوان السيد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت - لبنان

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٨٠٠٤
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

ص.ب المجلة : ١٤/٥٥٦٤ ص.ب المعهد : ١٤/٥٣٠٠

الثمن : ٢ ل.ل. أو ما يعادلها

القرآن الكريم في الاتحاد السوفياتي

الشيخ طه الولي

النسخة المخطوطة من القرآن في مدينة طشقند عاصمة أوزبكستان

يعتقد اخواننا المسلمون في الاتحاد السوفياتي أن المصحف الموجود اليوم في مكتبة الادارة الدينية (الاسلامية) في طشقند هو نفس النسخة الأصلية التي كتبت في أيام الخليفة عثمان بن عفان، وهم يسمونه «المصحف العثماني»، ويشاركهم في هذا الاعتقاد بعض العلماء من خارج الاتحاد السوفياتي. وجدير بالذكر أن ما يقوله المسلمون السوفيات بالنسبة لهذا المصحف ويقوله غيرهم بالنسبة لما يدعونه من حيازتهم لمصحف عثمان كذلك، سببه أن الناس في كل مكان وزمان حريصون على تشرفهم بحيازة هذا الأثر الثمين من تراثهم الاسلامي. ومن خلال هذا الحرص، يتوهمون أن كل مصحف مكتوب بالخط الكوفي على الرق لا بد أن يكون هو النسخة نفسها التي كتبت في أيام عثمان ولو لم تكن في الواقع كذلك. ومن جملة العلماء المسلمين الذين يشاركون المسلمين السوفياتي بنسبة مصحف طشقند إلى عثمان بن عفان العالم الفلسطيني المحقق عبدالله مخلص المولود في «عنتاب» من أعمال **حلب** سنة (١٢٩٦ هـ/١٨٧٨ م)، والمتوفى بفلسطين سنة (١٣٦٧ هـ/١٩٤٧ م)؛ فقد نشر هذاالعالم بمجلة **الكشاف** البيروتية الصادرة بتاريخ (ربيع الأول ١٣٤٨ هـ/ أيلول/سبتمبر سنة ١٩٢٩ م) مقالاً عنوانه «مصحف عثمان» قال فيه:

«أول ما اهتدى الباحثون إلى نسخة القرآن الثمينة العريقة في القدم، كان عام (١٢٨٦ هـ/١٨٦٩ م) في مدينة سمرقند، وقد حفظت هذه النسخة القديمة النفيسة في مكتبة سان بطرسبورغ (لينينغراد اليوم) الامبراطورية العامة. وكان أول من أحضرها حاكم تركستان العام الجنرال «كوفمان». قالوا: وكانت قد قدمت هذه النسخة هدية من آسيا الصغرى إلى «كوجا» التركستاني الشهير الذي ولد عام (٨٠٦ هـ/١٤٠٣ م) قدمها له أحد الباحثين من رجال الدين، ثم نقلت إلى تركستان بفضل واهتمام الفاتح العظيم «تيمورلنك»؛ وهذه

النسخة كبيرة القيمة عظيمة الخطر، لأنها مكتوبة بخط عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين، وقد كتبت كلها بيده.

ومن هنا تتجلّى للقارىء نفاسة هذه النادرة المعدومة المثال، التي جمعت بين جلال القدم وجلال الكاتب . . . »

وإننا مع تقديرنا لهذا العالم الفلسطيني الجليل، نرى في كلامه ما لا يصح قبوله، لا سيما فيما يتعلق بقوله إن النسخة السمرقندية مكتوبة بخط الخليفة عثمان بن عفان نفسه، وهو قول لم يسبقه إليه أحد من المحققين الذين أرخوا للمصحف المذكور، فلقد أجمع هؤلاء المحققون على أن عثمان كلّف بعض الصحابة بكتابة المصحف وأنه هو شخصياً لم يفعل شيئاً من ذلك.

وأما فيما يتعلق بما أكده عبدالله مخلص عن نسبة هذا المصحف إلى أيام الخلفاء الراشدين قبل نحو (١٤) قرناً، فإنه اعتمد فيه على المستشرق الروسي **شبونين** الذي انكب على دراسته عندما كان عضواً « بجمعية الآثار الامبراطورية الروسية »، ورأى أن هذا المصحف كتب بالعهد الأول من الاسلام كما يستدل من خطه، والرق الذي كتب عليه. في حين، أن المستشرق الروسي **كراتشكوفسكي** (Kratchkovski) (١٨٨٣ - ١٩٥١ م)، لم يكن من رأي زميله ومواطنه شبونين، وأنه نشر مقالاً عن هذا المصحف في العدد الثالث من المجلة، الروسية (ابفرافيا الشرقية) لعام ١٩٤٩ م، حدّد فيه كتابة المصحف المذكور في أوائل القرن الثاني للهجرة (أي من عام ٧٣٢ م - ٨١٤ م).

ولم يكن **كراتشكوفسكي** الشخص الوحيد الذي نفى نسبة المصحف الموجود اليوم في طقشند إلى عثمان بن عفان، فلقد نقل ذلك أيضاً العلامة شهاب الدين **المارجاني القزاني** مؤلف كتاب: « ناظورة الحق في فرضية العشا وإن لم يغب الشفق »، وغيره، فقال هذا العلاّمة في كتابه، **الفوائد المهمة**: « ومن الأكاذيب ما اشتهر بين أهالي سمرقند وبخارى وغيرهما من أن مصحف الإمام هو المصحف الذي في مدينة سمرقند في مدرسة الأحرار، وأنه حمله جده أبو بكر القفال الشاشي من بغداد إلى بلده، وتوارثه أولاده إلى أن وصل إلى الشيخ عبيدالله (أحرار)، فوضعه في مدرسته، فهذا المصحف، وإن كان من الآثار القديمة المتبركة، لكن ليس هو بمصحف الإمام لدلائل تشهد بذلك، ومن هذه الدلائل التي ذكرها **المارجاني**: إن أبا عبيد (القاسم بن سلاّم الهروي - نسبةً إلى هراة) المتوفى سنة (٢٢٤ هـ/٨٣٨ م)، ذكر أن كلمة « لا » وقعت فيه (أي في مصحف عثمان الحقيقي) آخر السطر، وكلمة « حين » في صدر السطر الآخر - يقصد كلمة **(لات حين مناص)** وإني - الكلام للمارجاني - فحصت هذا المصحف، إذ هو بسمرقند، فوجدت الكلمة على خلاف ما ذكره. فإن التاء

ليست بمتصلة، ولا واقعة كلمة «لا» في آخر السطر ولا كلمة «حين» في أوله. وقد حمل هذا المصحف إلى مدية بطرسبورج عند استيلاء الروس على مدينة سمرقند سنة خمس وثمانين ومائتين وألف الهجرية، (١٨٦٨ م)، وتلقوا (أي الروس) هذا الكذب منهم - أي من أهل سمرقند - وكتبوه في الجرائد وأدرج رد ذلك في بعض جرائد القسطنطينية بإلقاء مني» (هذه الجرائد هي: **حقائق الوقائع** عدد ربيع الأول سنة (١٢٨٩ هـ)، عدد صَفَر سنة (١٢٨٩ هـ). جريدة **الحوادث** عدد ذو الحجة سنة (١٢٨٨ هـ). هذا، وإن الشيخ **اسماعيل مخدوم** مؤلف كتاب «تأريخ المصحف العثماني في طشقند»، الذي نقلنا عنه كلام المارجاني، أورد بهذه المناسبة النص الحرفي للرسالة التي أدرجها المارجاني في الجرائد المذكورة ونحن ننقلها هنا بكاملها استكمالاً للفائدة التاريخية، قال المارجاني:

«بعد التحية، لقد كان في داخل سمرقند في مدرسة منسوبة إلى الخواجه عبيدالله الأحرار، مصحف قديم مكتوب على رق حيوان بالخط الكوفي، وما كان فيه من علامات الحروف والإعراب والوقوف والآيات وأسماء السور وغيرها شيء، وفي أواخر الصفحات حمرة على لون الشفق يقولون إنه دم، يزعم أهالي بخارى وسمرقند أن هذا المصحف هو المصحف الإمام الذي كان لعثمان نفسه رضي الله عنه، وقد نقله الروس حين استولوا على سمرقند إلى بطرسبورج وكتبوا مراراً مفتخرين: بأن هذا مصحف المسلمين الأم - وحتى أن علماءهم لا يقدرون قراءته، وهذا المصحف وإن كان من الآثار القديمة ليس بالمصحف الإمام فيما أظن، وقد كنت نظرت فيه وقرأته حين وردت سمرقند سنة (١٢٦٠ هـ/١٨٤٤ م)، وقد كتبت قبل هذا بخمسة عشرة سنة في كتابي «وفيات الأسلاف» في ترجمة ملاّ عبدالرحيم بن عثمان الأوتوز ايماني المتوفى سنة (١٢٥٠ هـ/١٨٣٤ م)، ما جزمت من أمر هذا المصحف. وها أنا بعثت إليكم بالترجمة برمتها، فلو نشرت في الجرائد ومجاميع الفنون لكان أحسن، إذ فيه الجواب الكافي عما تفتخر به الروس. لقد قرأته، أنا والشيخ الأوتوزايماني، وعلمنا أن المصحف ليس بذاك المصحف الإمام، فلو أتيح أن ينشر في وقت ما، تتفضلون، بإرسال عدة نسخ من ذلك إلى هذا الجانب، فإن الروس سألوا سفير أمير بخارى «يحيى خواجه» عن هذا المصحف، وهو أجاب من غير تثبّت وتريث كما هو عادتهم - أي أهل بخارى - بأنه المصحف الإمام، فكتبوا هذا أيضاً في الجرائد» - انتهت رسالة المارجاني.

وللشيخ المارجاني كتاب، اسمه «وفيات الاسلاف» قال فيه: «حين كتبت ترجمة الشيخ عبد الرحيم بن عثمان الأوتوزايماني المتوفى سنة (١٢٥١ هـ)، قلت في هذا الكتاب إن الشيخ عبد الرحيم المذكور لمّا زار سمرقند رأى هذا المصحف محتاجاً إلى الإصلاح، فأصلح الأوراق والخطوط وكتب الصحايف الساقطة من جديد، وأصلح المواضع المخرومة ولم يألُ جهداً فيما عمل أن يكون كالأصل. وهذا المصحف كان موجوداً في أوائل

العصر التاسع في القاهرة، بعد زمان أبي بكر القفال الشاشي وحتى بعد الشيخ عبيدالله الأحرار بكثير، ذكر هذا ابن الجزري وغيره . . . » .

وفي أواخر هذا القرن، قام الشيخ **موسى الله روستوفدوني** صاحب كتاب « تاريخ القرآن والمصاحف » المطبوع في بطرسبورج سنة (١٣٢٣ هـ/ ١٩٠٥ م)، بزيارة إلى سمرقند وغيرها من بلاد « ما وراء النهر »، وألف كتاباً عن مشاهداته في هذه الزيارة سماه « السياحة فيما وراء النهر »، ذكر فيه أن المصحف المحفوظ اليوم - أي في أيام المؤلف - في بطرسبورج الذي يُعتقد أنه مصحف عثمان رضي الله عنه، كان أولاً في هذا المسجد (مسجد الخواجة الاحرار بسمرقند) قال المؤلف: وكنت قد زرت هذا المصحف المبارك أثناء زيارتي بطرسبورج، وعلمت يقيناً أنه ليس هو المصحف الإمام، لأنه كبير الحجم والمصحف الإمام كان، على ما قال العلماء، قدر صفحتي اليدين وطوله زائداً عن ذلك شيئاً . ذكروا ذلك في الكتب، فعلى هذا يكون مصحف عثمان رضي الله عنه أكبر بيسير من مخطوطاتنا العادية، لا على قدر المصحف المحفوظ في مكتبة بطرسبورج أبداً، ثم إن مصحف عثمان رضي الله عنه تغيب بعد شهادته في مكتبة بطرسبورج أبداً، ثم إن مصحف عثمان رضي الله عنه تغيب بعد شهادته عن الوجود، وليس له خبر، إلاَّ أن بعضهم قال إنه كان عند ابنه خالد، ولا يعلم أين ذهب بعد ذلك .

وما دمنا قد نقلنا فيما تقدم وجهة نظر المتشككين بصحة نسبة المصحف الموجود اليوم في طشقند الى الخليفة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين، فإن أمانة البحث العلمي تقتضينا نقل وجهة نظر الذين قالوا بصحة هذه النسبة، أو أنهم على الأقل رجحوها . من هؤلاء، **جعفر الحسني** رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق سابقاً، الذي كتب في مجلة **المجمع العلمي العربي** (المجلد ٣٩ - شعبان المعظم ١٣٨٣ هـ/ كانون الثاني/يناير ١٩٦٤ م) تحت عنوان: « مصحف عثمان »، تعليقاً على مقال بنفس العنوان كتبه الدكتور عبدالرحمن الكيالي في نفس المجلة (المجلد ٣٨، جزء ٤)، قال الحسني:

« سمعت بحديث المصحف الذي كان في جامع الخوجة أحرار بسمرقند، ولم يتيسَّر لي رؤيته، وأعتقد أن كاتب المقال اكتفى بنقل رواية أهالي سمرقند دون أن يدعم هذا الزعم بحجة علمية . . . ويستدل من حجم هذا المصحف ووزنه أنه لم يكن للتداول، إذ لا يتسع له حجر القارىء ويصعب حمله ونقله، وأرجّح أنه كان كغيره من المصاحف الكبيرة من الأمهات التي يعتمدها نساخ المصاحف . . . » .

وكان الدكتور **عبدالرحمن الكيالي**، قد تحدّث في مقاله الذي علّق عليه جعفر الحسني عن المصحف الذي كان في قلعة حمص وتداولته الأيدي إلى أن انتهى به المطاف إلى الآستانة، حيث حُفظ في متحف الأوقاف

بعقود، جمال عبد الناصر في « الميثاق ».

ذلك هو الغرب واستشراقه، وذلك هو الشرق وعلاقاته بالغرب. ولكن ذلك كله لا يدخل في ما تواضع الناس على تسميتـه استشراقـاً، أي الاستشراق العلمـي القـائم على دراسات اختصاصية للأدب وللحضارة العربيين. فيتناوله المؤلف، في نهاية كتابه، ببعض صفحات سريعة، ليؤكد انه نشأ حين نضبت المناظرات الدينية في نهاية القرن السابع عشر، ثم تطور مـن دراسـات نصـوص بحتـة إلى دراسة مجتمع، فإلى الولوج في الثقافة واللغة ولوجاً عميقاً منذ نهاية القرن الماضي، ويفرد في ذلك مكاناً متميزاً لماسينيون الفرنسي وماك دونالد الانكليزي. ثم تنوّع هذا الاستشراق من بلد اوروبي إلى آخر، وإلى ان انتهى الى جاك بيرك. فيرى المؤلف ان بهذا الأخير ينصرم استشراق قديم ليبدأ استشراق آخر، فيتمنـى لهذا الاستشراق « ان ينـزع عـن موضوعه هالة القدسية فيفطن إلى ان المجتمعات العربية الاسلامية حية قادرة على التفكير، في كلا الاتجاهين: في نفسها وفي الآخرين. وان يبقى اولا وأخيراً مجموعة تقنيات وملاحظات تتعمق يوماً عن يوم، لا تشهير فيها ولا تملّق » (ص ٢٧١). فإذا لاقى هذا الاستشراق استغراباً (نظرة شرقية إلى الغرب) مماثلاً، « تلاقت النظرتان ».

ذلكم هو كتاب « المشارق النقيضة او رؤية الآخر وفقاً للذات». أكدنا في تحليله السريع هذا على نقاط الوهن فيه، لنصل إلى حقيقة أساسية، هي: أن هذا الكتاب كُتب بلغة غربية (الفرنسية) ولغـربيين، فلا عجـب أن يكـون منظوره ومنطلقه غربيين. وعلينا أن نحمله هذا المحمل، فإذا فعلنا تبينت لنا حسناته الأخرى - وهي كثيرة - ومن الغبن أن نسكت عنهـا. وأهمهـا، أن هـذا الكتـاب من المحاولات النادرة التي تحدث الجمهور الغربي عن الشرق بغير ما ألف، وباطلاع واسع وجهدٍ كبير لتفهم الآخر. ومنها ايضاً تلك الوقفة الصريحة تجاه الآخر دون تملق وإن مالت إلى الاجحاف احياناً. فهو إذن يحاول ان يقف ذلك الموقف الوسط، لا متملقاً ولا متحاملاً، في فترة ندر فيها غير التملّق او التحامل. وأظننا بحاجة الى موقف كهذا: بحاجة **أولاً** الى أن نضع نظرة الآخرين في مقامها، أي نظرة مغايرة، فلا نطلب منها أن تمدنا بشرعية نضيفها على النظرة التي نريد إلى أنفسنا. أقول ذلك في وجه تيار عارم، يتهافت على اعتراف الآخر به على الشكل الذي يريد، فلا يقر إلا على قول إيجابي يقوله الأجنبي به. أما ما يقوله هو أو يفكر به، فليس له شرعية حقيقية. تصرُّف نُطلق عليه لقب « عقدة الخبير الأجنبي ». ونحن بحاجة **ثانياً** الى ان ينظر إلينا من الخارج لكي نعرف إحسـاس الآخـر بنـا، فنخرج من ذاتيـة قـد تـوقعنـا - وكثيراً مـا فعلـت - في الأوهام. نقول هذا ايضاً، في وجه تيار آخر يبحث عن أصالة خفية، يخفيها عن عين كل رقيب، إذ الآخر لا بد « الخناس الوسواس ». تصرف نطلق عليـه لقـب « عقـدة الآخر ». إن كلا العقدتين تنمّان عن عدم ثقة بالنفس. الموقف الآخر المطلوب، هو موقف الواثق من نفسه، من حضارته ومستقبله، فيرضى أن يجابه كل آخر وكل خارج، ليفيد منه ويفيده. وذلك لعمري موقف خلاّق وَعِر. غير أنه لا محيد عنه عصر لم تبعد فيه حدود ولا قوقعة، فإما حضارة تتجلى على المستوى العالمي وإلا فأخرى إلى زوال.